

الفصل الثانى

القصدانية

طريقة تناول المنظومات القصدية

بدايات بسيطة :

مولد العامل الفعال :

ليس من حبة رمل يكون لها عقل ؛ فحبة الرمل أبسط جداً من ذلك . بل الأبسط من ذلك أنه ما من ذرة كربون أو جزئ ماء لها أوله عقل . ولكن ماذا عن الجزئيات الأكبر ؟ إن الفيروس جزئ واحد ضخم ، جزئ كبير يتكون من مئات الآلاف أو حتى ملايين الأجزاء ، الأمر الذى يعتمد على مدى صغر الأجزاء التى نحسبها . وهذه الأجزاء فى المستوى الذرى تتفاعل معا بطرائقها ، وهى طرائق من الواضح أنها لا عقل فيها ، وذلك حتى تنتج بعض التأثيرات المذهلة . ومن وجهة نظرنا فى هذا البحث فإن التأثير الرئيسى بين هذه التأثيرات هو «نسخ الذات» . ببعض الجزئيات الكبيرة عندما تترك سابحة فى وسط مجهز جيداً بما يلزم ، تكون لها قدرة مذهشة على أن تبني بلا عقل نسخاً لذاتها وتفرزها مطابقة لنفسها بالضبط أو بما يكاد يكون مضبوطاً . وحامض دنا هو وسلفه حامض رنا^(١) هما من هذه الجزئيات الكبيرة ؛ وهما أساس كل الحياة على هذا الكوكب ، وبالتالي فإنهما تاريخياً شرط مسبق لكل العقول - على الأقل كل العقول التى على هذا الكوكب . وقد ظلت هناك جزئيات كبيرة ناسخة للذات طيلة حوالى بليون سنة قبل ظهور الكائنات الحية البسيطة وحيدة الخلية على الأرض ، وكانت هذه الجزئيات الكبيرة تواصل بلا انقطاع عمليات الطفر ، والنمو بل وحتى ترميم ذاتها ، والتحسين إلى أفضل وأفضل - مع مزيد ومزيد من نسخ الذات .

وهذه أعمال فذة عجيبة ، ما زالت تتجاوز قدرات أى روبوت موجود . هل يعنى ذلك أن هذه الجزئيات الكبيرة لها عقول مثلنا ؟ بالتأكيد لا . إنها حتى ليست حية - فهى مجرد بلورات ضخمة من وجهة نظر الكيمياء . وهذه الجزئيات العملاقة ماكينات دقيقة الصغر - أى تكنولوجيا «جد مصغرة» لجزئيات «كبيرة» . إنها فى الواقع روبوتات طبيعية .

وقد توصلنا من خلال ميكروسكوب البيولوجيا الجزيئية إلى أن نشهد مولد «العمالة الفعالة» (=Agency) فى أول الجزئيات الكبيرة التى لها درجة من التعقد

(*) دنا حامض دى أوكسى ريبو نيو كليك موجود فى نواة الخلية وهو المكون الأساسى للجينات أو الموراثات ورنا هو حامض ريبو نيو كليك موجود فى نواة الخلية وسيتوبلازمها ودوره مهم فى تكوين البروتينات حسب شفرة دنا. والفيروسات تكون غالباً من رنا المتكاثر يحيط به غلاف بروتينى. وتطورياً يعد رنا سابقاً لدنا (المترجم) .

كافية «لأداء الأفعال» بدلا من أن تظل قابضة فحسب مع «تأثيراتها». ودورها هذا كعامل فعال لم يكتمل نموه مثل دورنا نحن . فهي لا تعرف ما تفعله . ونحن على النقيض كثيراً ما نعرف كل المعرفة ماذا نفعل . إننا في أحسن أحوالنا - كما في أسوأها - نحن العوامل الفعالة البشرية ، نستطيع أداء أفعال «قصدية» ، بعد أن نتدبر بوعي الأسباب التي مع ذلك أو ضده . أما الجزئيات الكبيرة ، فهي كمعامل فعالة تختلف عن ذلك؛ وهناك أسباب لما تفعله الجزئيات الكبيرة ، ولكن هذه الجزئيات لا تعي هذه الأسباب . على أن نوعهم هذا من العمالة الفعالة هو الأساس المحتمل الوحيد الذي يمكن أن تنمو منه بذور نوعنا من العمالة الفعالة .

ومع أن الماكينات الجزئية تنجز أعمالها المثيرة المذهلة ، ومع أن من الواضح أنها ماكينات رائعة التصميم ، إلا أنه يماثل ذلك وضوحاً أنها لا تعقل شيئاً مما تفعله .

هذه الماكينات الجزئية الصغيرة جد الصغر ولا تنصف بأنها لا شخصية وغير متأملة وأنها روبوتية وبلا عقل ، هذه الماكينات هي الأساس الأولى لكل ما في العالم من عمالة فعالة ، وبالتالي لما فيه من المعنى ومن الوعي . ومن النادر لحقيقة علمية متينة ولا خلافية هكذا أن يكون لها مثل هذه التضمينات القوية لبناء كل ما تلا من الجدل حول أمر خلافى وغامض كالعقول ، وبالتالي هيا بنا نقف وقفة قصيرة لنذكر أنفسنا بهذه التضمينات .

لم يعد هناك بعد أى شك جدى بشأن الأمر التالى : وهو «أننا السلسلة المباشرة لهذه الروبوتات الناسخة للذات» . نحن من الثدييات ، والثدييات كلها قد انحدرت من أسلاف من الزواحف ، كانت أسلافها من أسماك ، كانت أسلافها مخلوقات بحرية تكاد تشبه الديدان ، وهذه بدورها انحدرت من كائنات أبسط متعددة الخلايا منذ مئات عديدة من ملايين السنين ، وهذه انحدرت من كائنات وحيدة الخلية ، انحدرت من جزئيات كبيرة ناسخة للذات منذ حوالى ثلاثة بلايين عام . ولا يوجد سوى شجرة عائلة واحدة يمكن أن نجد عليها كل الأشياء الحية التى عاشت على هذا الكوكب - ليس فحسب الحيوانات ، وإنما أيضاً النباتات والطحالب والبكتريا . نحن نتشارك فى سلف مشترك مع كل شمبانزى وكل دودة وكل نصل عشب ، وكل شجرة خشب أحمر . فالجزئيات الكبيرة إذن هي من أسلافنا .

حتى نوضح الأمر بصورة حية فإن جدة جدة ... جدتنا «كانت روبوتا ! ونحن لسنا فحسب منحدرين من هذه الجزئيات الكبيرة الروبوتية وإنما نحن أيضاً نتكوّن منها : كل ما فينا من جزئيات الهيموجلوبين ومن الأجسام المضادة والعصبونات وماكينات رد الفعل المنعكس . كل ما فى جسمنا على كل مستوى للتحليل بدءاً من المستوى الجزئى فصاعداً (وطبعاً بما فى ذلك مخنا) هذا كله يتكون من ماكينات تؤدي فى صمت أبكم مهمة مذهلة تم تصميمها تصميمًا رائعاً .

ونحن ربما قد توقفنا عن الإحساس بروعة الرؤية العلمية للفيروسات والبكتريا وهى مشغولة بلا عقل فى تنفيذ أهدافها التدميرية - تلك الأوتوماتات الصغيرة البشعة وهى تؤدى أفعالها الشريرة . على أنه ينبغي ألا نعتقد أنه سيكون من المريح لنا الظن «بأنها» عناصر غزو أجنبية ، تختلف تماماً عن الأنسجة الأكثر تجانساً التى تتألف منها «نحن» . فنحن مصنوعون من نفس الأنواع من الأوتوماتات التى تغزونا - فلا توجد حالات بشرية خاصة تميز ما لدينا من الأجسام المضادة عن الأنثيجينات(*) (المستضدات) التى تقاتلها ؛ فالأجسام المضادة لدينا تنتمى فحسب إلى نفس النادى الذى هو نحن ، وبالتالي فإنها تخارب فى صفنا . وبلايين العصبونات التى تتجمع معا لتصنع مخنا ، هى خلايا لها نفس نوع الكيان البيولوجى مثل الجراثيم التى تسبب الأمراض المعدية ، أو خلايا الخميرة التى تتكاثر فى الدن العميق عندما تتخمر البجعة أو فى العجين عندما ينتفخ الخبز .

وكل خلية - أى كل عامل فعال دقيق ممن يستطيع أداء عدد محدود من المهام - هى بلا عقل مثلها فى ذلك مثل الفيروس . هل يمكن أنه لو رص معا عدد كافى من هذه الأقزام البكماء - وكأنها أفراد بشر صغيرة الحجم - تكون النتيجة شخصاً حقيقياً واعياً له عقل حقيقى ؟ حسب العلم الحديث لا توجد أى طريقة أخرى لصنع شخص حقيقى . والآن ، فإنه مما لا ريب فيه أن حقيقة أننا قد انحدرنا من روبوتات لا يترتب عليها بالضرورة أننا نحن أنفسنا روبوتات . وعلى كل ، فإننا أيضاً ننحدر مباشرة من السمك ، ولكننا لسنا بأسماك ؛ ونحن ننحدر مباشرة من البكتريا ، ونحن لسنا بالبكتريا . ولكن ، ما لم يكن هناك بعض عنصر سرى إضافى فينا (وهو ما تعود أصحاب المذهب الثنائى**) والمذهب الحيوى*** على اعتقاده)، فإننا مصنوعون من روبوتات : أو أننا بما يصل إلى نفس الشيء ، يتكون كل واحد منا من مجموعة من تريليونات ماكينات الجزئيات الكبيرة . وهذه كلها تنحدر فى النهاية من الجزئيات الكبيرة الأصلية الناسخة للذات . وهكذا فإن شيئاً مصنوعاً من الروبوتات «يستطيع» أن يظهر وعياً حقيقياً ، حيث أننا نفعل ذلك ، إذا كان هناك من يفعله .

وأنا أدرك أنه بالنسبة لبعض الناس ، فإن هذا كله يبدو أمراً غير محتمل يصيب بالصدمة ، ولكنى أظن أنهم لم يلحظوا كيف أن بدائل ذلك تبعث على اليأس . فالمذهب الثنائى (أى رأى بأن العقول تتكون من بعض خامة لا فيزيقية غمضة

(*) الأنثيجينات مواد أجنبية عن جسدنا كالجراثيم مثلاً ، وتستثير جهاز المناعة ليكون أجساماً مضادة لمقاومتها (المترجم) .

(**) المذهب الثنائى يقابل الواحدية ، ويفسر العالم بالقول بمبدأين متقابلين كالجسم والعقل أو الشر والخير (المترجم) .

(***) المذهب الحيوى نزعاً مثالية ترد كل مظاهر نشاط الكائن الحى إلى قوة حيوية كامنة فيه (المترجم) .

تماماً) هو والمذهب الحيوى (أى الرأى بأن الأشياء الحية تحوى بعض خاماة فيزيقية خاصة ولكنها غامضة بما يساوى الغموض فى الثنائية - وهى «اندفاع الحياة»^(*)) هذان المذهبان أصبح مكانهما فى صندوق قمامة التاريخ مع الخيمياء^(**) والتنجيم . ولن نجد أى مجال للوقوف والقتال من أجل هذه الأفكار المهجورة ، إلا إذا كنا مستعدين لأن نعلن أن العالم مسطح وأن الشمس عربة نارية تجرها جياد مجنحة - أو بكلمات أخرى إذا كنا نرفض العلم الحديث رفضاً كاملاً . وإذن ، هيا ننظر أى قصة تلك التى يمكن أن تحكيها لنا المصادر العلمية المحافظة . لعل فكرة أن عقولنا قد تطورت من عقول أبسط ليست على كل حال قصة جد سيئة .

إن أسلافنا من الجزئيات الكبيرة (وهذا بالضبط ما تكونه بدون أى مجاز : فهى أسلافنا) «تشبه» العامل الفعال من بعض الوجوه ، إلا أنها من وجوه أخرى تكون سلبية بما لا يمكن إنكاره ، فهى تطفو عشوائياً فيما حولها ، ويدفع بها إلى هنا وهناك - ويمكنك القول بأنها تترقب الفعل وينادقها محشوة ولكنها لا تترقبه «بأمل» أو «بتصميم» منها أو عن «قصد» . قد يكون فكها مفتوحاً ، ولكنها مثلها مثل الفخ الفولاذى غير ذات عقل .

ما الذى يتغير ؟ لا شىء مفاجئ . إن أسلافنا قبل أن تحصل على العقول تحصل على الأجساد . فالأسلاف تصبح أولاً خلايا بسيطة ، أو ذات نواة كاذبة ، وفى النهاية فإن ذوات النواة الكاذبة تدخل بعض الغزاة أو السكان ، ومن ثم فهى تصبح خلايا مركبة - أو ذات نواة حقيقية . وبحلول ذلك الوقت الذى يقارب زمنه بليون سنة بعد ظهور أول خلايا بسيطة ، فإن أسلافنا أصبحوا بالفعل ماكينات معقدة عجيبة (تتكون من ماكينات مصنوعة من ماكينات) ، ولكنها ما زالت بلا عقل . وهى فى مسارها تظل كما كانت دائماً سلبية وبلا توجه ، ولكنها الآن مجهزة بالكثير من النظم الفرعية المتخصصة ، من أجل استخلاص الطاقة والمادة من بيئتها ومن أجل أن تقوم عند الضرورة بحماية أنفسها وترميمها .

التنظيم المعقد لكل هذه الأجزاء المتسقة لا يشبه كثيراً أن يكون عقلاً . وأرسطو يطلق اسماً على هذا التنظيم أو على سلالة : فهو يسميه «روحاً مغذية» . والروح المغذية ليست شيئاً ؛ فهى مثلاً ليست واحداً من تلك النظم الفرعية الميكروسكوبية التى تسبح فيما حولها فى سيتوبلازم الخلية . أنها «مبدأ تنظيمى» ؛ وكما يقول

(*) «اندفاع الحياة» عند برجسون قوة حيوية أصيلة تنتقل فى الكائنات الحية من جيل إلى جيل وهى مصدر الحياة فى تطورها وشعبها . (المترجم) .

(**) الخيمياء : الكيمياء القديمة التى كان من أهدافها تحويل المعادن الرخيصة كالنحاس إلى معادن ثمينة كالذهب ، واكتشاف أكسير الحياة . (المترجم) .

أرسطو فهي تشكّل وليست مادة . وكل الأشياء الحية - ليس فحسب النباتات والحيوانات وإنما أيضاً الكائنات وحيدة الخلية - كلها لها أجساد تتطلب منظمة لها تنظيم ذاتي وحماية ذاتية يمكن تنشيطها أنشطة تتميز بالظروف المختلفة . وهذه المنظمات قد صممت تصميماً ألعيا بالانتخاب الطبيعي ، وهي تتكون في أساسها من كثير من المفاتيح الدقيقة السلبية التي يمكن أن تدار للتشغيل أو للإيقاف بواسطة ظروف تماثلها سلبية ، مما تلاقيه الكائنات الحية في تجوالها .

ونحن أنفسنا ، مثل كل الحيوانات الأخرى ، لدينا روح مغذية - منظمة ذاتية التنظيم والحماية - تتميز تماماً عن جهازنا العصبي كما أنها أقدم منه : وهي تتكون من جهازنا الأبيض وجهازنا المناعي وأجهزة أخرى معقدة بما يذهل ، وتعمل من أجل الترميم الذاتي والحفاظ صحياً على أجسادنا . وخطوط الاتصال التي تستخدمها هذه الأجهزة القديمة لا تكون من الأعصاب وإنما من الأوعية الدموية . وقبل أن توجد التليفونات والراديوهات بزمن طويل كانت هناك الخدمة البريدية التي تقوم بعملية النقل على نحو يعتمد عليه وإن كان بطيئاً نوعاً ، فننقل حزمًا فيزيقية من المعلومات القيمة في أرجاء العالم . وكذلك فقبل أن يوجد الجهاز العصبي في الكائنات الحية بزمن طويل ، كانت الأجساد تعتمد على جهاز بريد منوعية تكنولوجية منخفضة - وهو جهاز تدوير السوائل داخل الجسم ، وهو جهاز وإن كان بطيئاً نوعاً إلا أنه ينقل بما يعتمد عليه حزمًا قيمة من المعلومات تصل إلى حيث تكون هناك حاجة إليها من أجل أداء عمليات للتحكم والحفاظ على الذات . ونحن نرى سلالة هذه الأجهزة البريدية البدائية في الحيوانات والنباتات معا . فتبار الدم في الحيوانات يحمل السلع والنفايات ولكنه أيضاً منذ وقت مبكر وهو الطريق الرئيسي للمعلومات . كذلك فإن حركة السوائل داخل النباتات توفر وسطاً بدائياً نسبياً لنقل الإشارات من أحد أجزاء النبات للآخر على أننا نستطيع أن نرى في الحيوانات تجديداً رئيسياً في التصميم : تطور الأجهزة العصبية البسيطة - أسلاف الجهاز العصبي اللاإرادي - أجهزة لها القدرة على نقل المعلومات على نحو أسرع وأكثر كفاءة ولكنها ما زالت مكرسة أساساً للأمور الداخلية . فالجهاز العصبي اللاإرادي ليس عقلاً بالمرّة وإنما هو بالأحرى جهاز للتحكم ، توجهه بأكثر حسب خطوط الروح المغذية في النبات التي تحافظ على السلامة الأساسية للمنظومة الحية .

إننا نميز بوضوح هذه الأجهزة القديمة عن عقولنا ، ولكن من العجيب أننا كلما نظرنا بدقة أكثر إلى تفاصيل عملياتها زاد ما نجد فيها من شبه بالعقل ! فمفاتيحها الصغيرة تشبه أعضاء الحس البدائية ، والتأثيرات الناتجة عند (تشغيل) و(إيقاف) هذه المفاتيح تشبه الأفعال القصدية . كيف ذلك ؟ إنها تشبهها في أنها

تأثيرات ناجمة عن نظم تضمين «للمعلومات» وبحث عن «الأهداف» . والأمـر
و«كأن» هذه الخلايا وهذه التجمعات من الخلايا هي «عوامل فعالة» دقيقة الحجم
وبسيطة العقل ، وهي كخدم متخصصة في أن تقوم بصورة منطقية بتعزيز قضايها
الخاصة القهارية بأن تعمل حسب الأساليب التي يملها إدراكها للظروف المحيطة .
والعالم يعج بكيانات كهذه بمدى يتراوح ابتداء مما هو جزئى حتى ما هو هائل
الحجم، ولا يقتصر على أن يتضمن فقط الأشياء «الطبيعية» مثل النباتات والحيوانات
وأجزائها (وأجزاء أجزائها) ، وإنما يتضمن أيضاً الكثير من مصنوعات البشر .
وكمثل فإن أجهز الثرموستات هي مثل مألوف لهذه العوامل الفعالة البسيطة الزائفة .
وأنا أسمى هذه الكيانات من أبسطها إلى أكثرها تعقداً «المنظومات القصدية» ،
كما أسمى المنظور الذى تتراءى فيه فعاليتها (زائفة كانت أو أصلية) بأنه «الموقف
القصدى» .

اتخاذ الموقف القصدى :

الموقف القصدى هو استراتيجية تفسير سلوك كيان ما (كشخص أو حيوان أو ما
هو مصنوع أو أيا ما كان) بأن يعامل «وكأنه» عامل فعال عاقل يتحكم فى «اختيار»
«فعله» «بالتدبر» فى «معتقداته» و«رغباته» . وهذه المصطلحات الرهيبة الموضوعة بين
الأقواس قد مطت خارج استخدامها العادى إلى ما يسمى عادة «بالسيكولوجية
الشعبية» ، أى الخطاب اليومى السيكلوجى الذى نستخدمه لمناقشة الحياة العقلية
للفرقه من أفراد البشر . والموقف القصدى هو الموقف أو المنظور الذى نتخذه روتينياً
أحدنا إزاء الآخر ، وبالتالي فإن اتخاذ الموقف القصدى إزاء شئ آخر يبدو أن فيه
تعمد «لأنسنة» هذا الشئ . كيف يمكن أن يكون ذلك فكرة جيدة فيما يحتمل ؟
سأحاول أن أوضح أنه لو تم فعل ذلك بحرص فإن اتخاذ الموقف القصدى لا
يكون فقط فكرة جيدة ، وإنما هو أيضاً المفتاح للكشف عن أسرار العقل - كل
أنواع العقل . فهذا منهج يستغل أوجه الشبه ليكتشف أوجه الاختلاف - المجموعة
الضخمة للاختلافات التى تكدرت بين عقول أسلافنا وعقولنا ، وتكدست أيضاً بين
عقولنا وعقول رفقتنا فى سكنى هذا الكوكب . والموقف القصدى يجب استخدامه
بحذر ، وينبغى علينا أن نمشى فوق حبل مشدود بين استعارة فارغة من جانب
وزيف حرفى من الجانب الآخر . وإساءة استخدام الموقف القصدى يمكن أن تضلل
الباحث غير المتنبه تضليلاً خطيراً ، ولكنه عند فهمه على الوجه الصحيح ، يمكن
أن يوفر منظوراً صحيحاً مثمرًا بالنسبة لمجالات عديدة مختلفة ، مبينا ما يكون من
وحدة كامنة فى الظواهر ، وموجها انتباهنا إلى التجارب الحاسمة التى يلزم إجراؤها .

الاستراتيجية الأساسية للموقف القصدى هي معاملة الكيان موضع الدراسة
كعامل فعال ، من أجل التنبؤ بأفعاله أو حركاته ، وبالتالي تفسيرها بمعنى ما .

والمعالم المتميزة للموقف القصدي يمكن أن نراها على أفضل نحو بأن نوضح تبينها مع موقفين أكثر أساسية أو استراتيجيتين أخريين للتنبؤ وهما : «الموقف الفيزيائي» و «الموقف التصميمي» . والموقف الفيزيائي هو ببساطة المنهج المقنن الشاق للعلوم الفيزيائية ، حيث نستخدم أيا مما نعرفه حول قوانين الفيزياء والتكوين الفيزيقي للأشياء موضع الدراسة لنستنبط تنبؤنا . وعندما أتنبأ بأن قطعة الحجر التي أطلقها من يدي سوف تسقط على الأرض ، فإنني استخدم الموقف الفيزيائي . فأنا لا أضفي على قطعة الحجر معتقدات ولا رغبات ؛ وإنما أضفي عليها الكتلة أو الوزن ، وأعتمد على قانون الجاذبية للوصول إلى تنبئي . وبالنسبة للأشياء التي ليست حية ولا مصنوعة ، يكون الموقف الفيزيائي هو الاستراتيجية الوحيدة المتاحة ، وإن كان يمكن إجراؤها بمستويات مختلفة من التفاصيل ، ابتداء مما هو تحت ذري ووصولاً إلى ما هو فلكي . وتفسير السبب في أن الماء يفور بالفقاقيع عند غليانه ، وفي ظهور سلاسل الجبال للوجود ، ومن أين تأتي الطاقة الشمسية ، هذه التفسيرات كلها تفسيرات من الموقف الفيزيائي . وكل شيء فيزيقي ، سواء كان مصمماً أو حياً أو لم يكن كذلك ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وبالتالي فإنه يسلك بطرائق يمكن تفسيرها والتنبؤ بها من الموقف الفيزيائي . وإذا كان الشيء الذي أطلقته من يدي هو ساعة منبه أو سمكة ذهبية ، فإنني أصل إلى نفس التنبؤ بالنسبة لمساره لأسفل ، وعلى نفس الأساس . وحتى نموذج الطائرة أو الطائر اللذين قد يتخذا مساراً جدي مختلف عند إطلاقهما ، حتى هذين سوف يسلكان بطرائق تخضع لقوانين الفيزياء بكل مقياس وفي كل لحظة .

والساعات المنبهة من حيث أنها أشياء تم تصميمها (بخلاف الصخر) ، تنقاد أيضاً لأسلوب تنبؤ أكثر خيالاً - التنبؤ من الموقف التصميمي . والموقف التصميمي فيه طريق مختصر مدهش ، نستخدمه كلنا طول الوقت . لنفرض أن أحدهم قد أعطاني ساعة منبه رقمية جديدة . وصناعة هذا المنبه وطرزه جديداً على تماماً ، ولكن فحص أزراره الخارجية ومظهره فحوصاً سريعاً يقنعني بأنني «إذا» ضغطت أزراراً قليلة لا غير ، سيحدث «إذن» بعد بضع ساعات أن المنبه ستصدر عنه ضجة عالية . ولست أعرف ما سيكونه نوع هذه الضجة ، ولكنها ستكون كافية لأن توقظني . وليس من اللازم على أن أستنتج القوانين الفيزيائية المحددة التي تفسر هذا النظام الرائع ، ولا من اللازم على أن أفكك المنبه لأجزاء أجزائها وأقيس ما يوجد هناك من فولتات كهربائية وإنما أنا «افترض» فحسب أن المنبه له تصميم معين - التصميم الذي نطلق عليه الساعة المنبه - وأنه سوف يعمل على وجه صحيح ، كما صمم له . وأنا مستعد لأن أخطر مخاطرة كبيرة نوعاً بالنسبة لهذا التنبؤ - ولكن ليس

بحياتي ، وإنما بما يتعلق باستيقاظي في الوقت المناسب للوصول إلى محاضرتي التي حدد وقتها أو للحاق بالقطار . وتنبؤات الموقف التصميمي فيها مخاطرة أكثر من تنبؤات الموقف الفيزيائي ، وذلك بسبب الفروض الإضافية التي علينا أن نضعها وهي : أن الكيان قد «تم» تصميمه على النحو الذي افترضت أنه يكون عليه ، وأنه سوف يعمل حسب هذا التصميم - أي أنه لن يختل في عمله . ويحدث أحياناً أن الأشياء المصممة يساء تصميمها ، ويحدث أحياناً أن تتعطل . ولكن هذا الثمن المتواضع الذي أتحملة من المخاطرة يعوضه بأكثر منه مدى السهولة الهائلة في التنبؤ . والتنبؤ حسب الموقف التصميمي عندما يمكن تطبيقه يكون منه طريق مختصر منخفض التكلفة وقليل المخاطر ، الأمر الذي يمكننا من أن نتحايل على التطبيق الشاق لمعرفةنا المحدودة بالفيزياء . والحقيقة أننا نخاطر روتينياً بحياتنا فيما يتعلق بتنبؤات الموقف التصميمي: فنحن لا نتردد في توصيل الأجهزة الكهربائية بالكهرباء وتشغيلها وهي أجهزة يمكن أن تقتلنا لو كان ثمة خطأ في توصيل أسلاكها .

وتنبؤ الموقف التصميمي يصلح على نحو مدهش للعمل على المصنوعات المصممة جيداً ، ولكنه يصلح أيضاً للعمل على مصنوعات أمنا الطبيعية - أي على الأشياء الحية وأجزائها . وقد حدث منذ زمن طويل قبل أن نفهم فيزياء وكيمياء نمو النبات وتكاثره ، أن كان أسلافنا يقامرون بحياتهم بالمعنى الحرفي للكلمة ، في اعتمادهم على معرفتهم المؤسسة على الموقف التصميمي بما «يفترض» أن ستفعله البذور عند زرعها . «فإذا» غررنا بذورا معدودة في الأرض هكذا فحسب ، فسوف يحدث «إذن» بعد شهور معدودة ، ومع بذل المزيد من جهد يسير نقوم به ، أن سيوجد طعام لناأكله .

قد رأينا في التو أن تنبؤات الموقف التصميمي فيها مخاطرة عند مقارنتها بتنبؤات الموقف الفيزيائي (والأخيرة تنبؤات آمنة ولكنها مما يصعب استنباطه) ، أما الموقف القصدي فهو حتى أكثر مخاطرة وسرعة . ويمكنك إذا شئت أن تنظر إليه كنوع متفرع من الموقف التصميمي حيث يكون الشيء المصمم عامل فعال من نوع سيء . فلنفرض أننا نطبقه على ساعة المنبه . هذا المنبه خادِم لي ، وأنا إذا «أمرته» أن يوقظني ، بأن «أجعله يفهم» وقتا معيناً للإيقاظ ، فإنني أستطيع الاعتماد على قدرته الداخلية «لإدراك» متى يحين هذا الوقت ليؤدي بكل إحساس بالواجب الفعل الذي وعد بتأديته . وبمجرد أن يصل إلى «الاعتقاد» بأن وقت فعل الضجيج هو الآن ، فإنه «يدفع» بفضل تعليماتي السابقة لأن يفعل فعله حسب هذه التعليمات ، ولا ريب في أن ساعة المنبه هي من البساطة بحيث لو تحدنا بدقة فإن هذه الأنسنة المفعمة بالخيال ليست ضرورية لفهم السبب في أن المنبه يفعل ما

يفعله - ولكن دعنا نلاحظ أن هذه هي الطريقة التي قد نشرح بها لطفل كيف يستخدم المنبه : «عليك أن تخبره بالوقت الذي تريده أن يوقظك عنده ، وهو سيذكر أن يفعل ذلك بأن يحدث ضجة عالية» .

يكون اتخاذ الموقف القصدى أكثر فائدة - بل يكاد يكون إجبارياً - إذا كانت الأداة المصنوعة موضع الدراسة أكثر تعقداً عن المنبه بدرجة كبيرة . ومثلى المفضل هو الكمبيوتر لاعب الشطرنج . هناك مئات من برامج الكمبيوتر المختلفة يمكن أن تحول الكمبيوتر إلى لاعب شطرنج ، سواء كان الكمبيوتر من أصغر الأنواع ، أو من نوع الكمبيوتر الفائتق . ومع كل أوجه الاختلاف فى هذه الكمبيوترات على المستوى الفيزيقي وعلى مستوى التصميم إلا أنها كلها تخضع بإنقائاً لنفس الاستراتيجية البسيطة من التفسير : فما علينا إلا أن نفكر فيها كعوامل فعالة عاقلة «تريد» أن تكسب ، و«تعرف» قواعد ومبادئ الشطرنج وأوضاع قطعة على اللوحة . وهكذا فإن مشكلتنا من حيث التنبؤ بسلوكها وتفسيره تصبح فى التو أسهل كثيراً مما لو حاولنا أن نستخدم الموقف الفيزيائى أو التصميمى . وما علينا فى كل لحظة فى مباراة الشطرنج إلا أن ننظر إلى لوحة الشطرنج ونضع قائمة بكل التحركات المسموعة المتاحة للكمبيوتر عندما يحين دوره للعب (ستكون هناك عادة عدة عشرات من التحركات المطروحة) . لماذا نحدد أنفسنا بالتحركات المسموعة ؟ لأننا نفكر فى أن الكمبيوتر يريد لعب الشطرنج ليفوز وأنه يعرف أنه يجب أن يودى فحسب تحركات مسموعة حتى يكسب ، وبالتالي فحيث أنه عاقل فإنه سيحدد نفسه بهذه التحركات . والآن هيا نرتب الحركات المسموعة ابتداءً من الأفضل (الأحكم والأكثر معنولية) حتى الأسوأ (أكثرها حماقة وهزيمة للذات) ثم نصنع تنبؤنا : الكمبيوتر سوف يودى أحسن حركة . ربما لا نكون جد واثقين مما «تكونه» أحسن حركة (الكمبيوتر قد «يقدر» الموقف أحسن مما نفعل !) ، ولكننا غالباً يمكننا دائماً أن نستبعد كل الحركات المطروحة ما عدا أربع حركات أو خمس ، الأمر الذى ما زال يعطينا فاعلية هائلة فى التنبؤ .

أحياناً حين يجد الكمبيوتر نفسه فى مأزق صعب ، وليس أمامه سوى أداء حركة واحدة لا انتحارية (حركة «إجبارية») ، فإنك تستطيع التنبؤ بحركته بثقة فائقة . ليس هناك أى قانون فيزيائى يجبر على هذه الحركة وليس هناك شئ فى التصميم الخاص للكمبيوتر يجبره عليها . فالحركة إجبارية نتيجة «أسباب» قوية قوة طاغية بما يودى لتنفيذ هذه الحركة وليس أى حركة أخرى . وأى لاعب شطرنج مهما كان ما يكونه من المواد الفيزيائية ، سوف ينفذ هذه الحركة . بل إن الشبح أو الملاك سوف ينفذها ! ونحن نصل إلى تنبؤنا باستخدام الموقف القصدى على أساس

افتراض جرى بأنه «مهما كان» تصميم برنامج الكمبيوتر ، فإنه قد صمم تصميمًا جيدًا بما يكفي لأن يجعله مدفوعًا بمثل هذا التفكير الجيد . ونحن نتنبأ بسلوكه «كما» لو كان عاملاً فعالاً عاقلًا .

لا شك أن الموقف القصدى طريق مختصر مفيد فى مثل هذه الحالة ، ولكن إلى أى حد ينبغي أن نأخذ مآخذًا جديدًا ؟ ما الذى يهم الكمبيوتر حقًا فى أن يكسب أو يخسر ؟ لماذا نقول أن ساعة المنبه «ترغب» فى إطاعة سيدها ؟ فى استطاعتنا أن نستخدم هذا التباين بين الأهداف الطبيعية والمصنوعة لنزيد من إدراكنا لحقيقة أن كل الأهداف الحقيقية تنبع فى النهاية من مأزق لشيء حتى حام لذاته . إلا أنه يجب أن نتبين أيضًا أن الموقف القصدى «يصلح للعمل» (عندما يصلح له) سواء كانت الأهداف المضافة ، أو لم تكن ، أهدافًا حقيقية أو طبيعية أو «مدركة حقًا» بواسطة العامل الفعال ، وهذا التسامح أمر حاسم لفهم طريقة استطاع بها أول كل شيء إرساء البحث الحقيقى عن الهدف ، هل الجزئ الكبير يريد «حقًا» أن ينسخ ذاته ؟ الموقف القصدى يفسر لنا ما يحدث ، بصرف النظر عن طريقة إجابتنا عن هذا السؤال . دعنا ننظر أمر كائن حتى بسيط - مثلاً الدودة المستورقة(*) أو الأميبا - وأى منهما يتحرك لا عشوائيًا عبر قاع طبق فى المعمل ، وهو دائماً يتجه إلى طرف الطبق الغنى بالمواد الغذائية ، أو بعيداً عن الطرف السام . إن هذا الكائن الحى يبحث هنا عن الأمر الطيب (الخير) أو يتجنب الأمر السيئ (الشر) - أى ما هو خير أو شر بالنسبة «له هو» ، وليس بالنسبة لفرد من البشر يستخدم أداة مصنوعة . والبحث عما هو خير للذات هو أحد الملامح الأساسية لأى عامل فعال عاقل ؛ ولكن هل هذه الكائنات الحية البسيطة كائنات باحثة أو أنها فحسب «تبحث» ؟ أننا لسنا فى حاجة للإجابة عن هذا السؤال . فالكائن الحى هنا هو فى كلا الحالين منظومة قصدية يمكن التنبؤ بأمرها .

وهذه طريقة أخرى لتوضيح فكرة سقراط فى حوار «مينو» عندما تساءل عما إذا كان أى شخص يرغب قط فى الشر وهو عارف بذلك . إننا نحن المنظومات القصدية نرغب بالفعل فى الشر أحياناً ، وذلك من خلال خطأ فى الفهم أو خطأ فى المعلومات ، أو لمحض الجنون ، ولكن الرغبة فيما يعد خيراً هى جزء لا يتجزأ من العقلانية . وهذه العلاقة الأساسية بين الخير والبحث عن الخير هى الأمر الذى يُضفى - أو بالأحرى الأمر المفروض إجبارياً - بواسطة الانتخاب الطبيعى لأسلافنا : فهناك الذين نالهم سوء الحظ فتم تصميمهم وراثياً بحيث يبحثون عما هو شر لهم ،

(*) دودة صغيرة مسطحة لها شكل ورقة النبات . (المترجم) .

وهؤلاء لا يتركون على المدى الطويل أى سلالة لهم . وليس من المصادفة أن منتجات الانتخاب الطبيعي «تبحث» عما «تعتبره» خيرا .

وحتى أبسط الكائنات الحية ، إذا كان عليها أن تفضل ما هو خير لها ، فإنها تحتاج لبعض أعضاء حسية أو قوى للتمييز - بعض المفاتيح البسيطة التى تصح فى حالة «تشغيل» فى وجود الخير وفى حالة «إيقاف» فى غيابه - وهذه المفاتيح أو «محولات الطاقة» يجب أن تتحد فى استجابة جسدية صحيحة . وهذا المطلب هو مولد «الوظيفة» . إن الصخرة لا يمكنها أن تؤدى أداء وظيفيا مختلا ، لأنها لم تجهز تجهيزا حسنا ولا سيقاً لدعم أى خير ، وعندما نقرر أن نفسر أحد الكيانات من خلال الموقف القصدى ، يكون الأمر وكأننا نضع أنفسنا فى دور الوصى عليه ، ونسأل أنفسنا بالفعل : لو كنا «نحن» فى حالة هذا الكائن الحى ، ماذا سنفعل ؟ ونحن هنا نكشف عن الأنسنة الكامنة فى الأساس من الموقف القصدى : إننا نعامل كل المنظومات القصدية وكأنها تشبهنا تماماً - وبالطبع فإنها ليست كذلك .

هل هذا إذن سوء تطبيق لمنظورنا نحن ، المنظور الذى نتشارك فيه نحن «أصحاب العقول» ؟ ليس بالضرورة . ومن حيث نقطة الأفضلية فى التاريخ التطورى نجد أن ما حدث هو كالتالى : تطورت الكائنات الحية تدريجيا عبر بلايين السنين ، وهى تحشد ماكينات يزداد دائماً تعدد جوانبها ، صممت لتعزيز من وجوه الخير لها ، تلك الوجوه التى تتزايد دائماً فى تعقدها واتساقها . وفى النهاية ، مع ما حدث לנוعنا من تطور فى اللغة ، ومع شتى أنواع التفكير التى تتيحها اللغة ، فقد انبثقت لدينا القدرة على أن نتساءل التساؤلات التى بدأنا بها هذا الكتاب - تساؤلات عن عقول الكيانات الأخرى . وهذه التساؤلات عندما تساءلها أسلافنا بسداجة أدت إلى الحيائية(*) Animism ، وهى فكرة أن كل شىء متحرك له عقل أو روح (باللاتينية Anima) . وبدأنا نسأل أنفسنا ليس فحسب ما إذا كان النمر يريد أن يأكلنا - وهذا أمر يحتمل أنه يريد - ولكننا نسأل أيضاً لماذا تريد الأنهار الوصول إلى البحار ، وماذا تريد السحب منا مقابل المطر الذى طلبناه منها . وكلما زدنا تعقداً - وهذا تطور تاريخى حديث جداً وليس مما يعد أمراً متميزاً فى آفاق الزمان التطورى الفسيحة - فإننا بالتدريج نلغى الموقف القصدى بالنسبة لما نسميه الآن بالطبيعة «اللاحائية» ، ونحتفظ به بالنسبة للأشياء الأكثر شبيهاً بنا : الحيوانات أساساً ، بل والنباتات أيضاً فى ظروف كثيرة . ونحن ما زلنا «نحتال على» الزهور لتزهر قبل الأوان وذلك بأن «نخدعها» بدفء وضوء من ربيع صناعى ، كما «نشجع» الخضروات على غرس جذورها لمسافة أطول بأن نحرمها من الماء الذى تحتاجه أشد الحاجة . وهذه الطريقة

(*) الحيائية فى الأنثروبولوجيا هى اعتقاد البدائيين أن كل ما يتحرك أو كل ما له تأثير ، تكون فيه حياة أو روح (المترجم) .

فى التفكير بشأن النباتات ليست فحسب طريقة طبيعية وغير ضارة ولكنها أيضاً وسيلة لمساعدتنا إيجابيا على الفهم كما أن لها فعاليتها المهمة فى الاكتشافات . عندما يكتشف البيولوجيون أن أحد النباتات عنده عضو بدائى للتمييز ، فإنهم يسألون أنفسهم فى التو لأى غرض يكون هذا العضو - ما هو المشروع التائه عند هذا النبات والذى يتطلب للنبات أن يحوز معلومات من بيئته عن هذا الموضوع ؟ وكثيراً جداً ما تكون الإجابة اكتشافاً علمياً مهماً .

«المنظومات القصدية» هى حسب التعريف كل تلك الكيانات ، وكلها وحدها ، التى يكون سلوكها قابلاً للتنبؤ / قابلاً للتفسير من خلال الموقف القصدى . ومن المنظومات القصدية الجزئيات الكبيرة الناسخة لذاتها ، وأجهزة الثرموستات ، والأميا ، والنبات ، والجرذان ، والخفافيش ، والبشر ، والكمبيوترات لاعبة الشطرنج كلها منظومات قصدية - وإن كان بعضها مثيراً للاهتمام بأكثر جداً من الآخرين . وحيث أن الفكرة فى الموقف القصدى هى أن نعامل أحد الكيانات كعامل فعال حتى نتنبأ بأفعاله ، فإن علينا أن نفترض أنه عامل فعال حاذق ، ذلك أن العامل الفعال المغفل قد يقوم بأى عمل غبى . وهذه الوثبة الجسور التى نفترض أن العامل الفعال لا يصنع إلا حركات حاذقة (مع ما يفترض من منظوره المحدود) ، هذه الوثبة هى ما يعطينا الفعالية فى صنع التنبؤات . ونحن نوصف هذا المنظور المحدود بأن نضفى على العامل الفعال معتقدات ورغبات «معينة» على أساس إدراكه للموقف وأهدافه أو حاجاته . وحيث أن فعاليتنا التنبؤية فى هذا التدريب تعتمد اعتماداً حرجاً على هذه الخاصية - حيث أنها حساسة للطريقة المهنية التى نعبّر بها نحن المنظرون عن هذه المعتقدات والرغبات ؛ أو طريقة تمثيل هذه المعتقدات والرغبات بواسطة المنظومة القصدية موضع البحث ، فإننى أسمى هذه المنظومات بأنها منظومات «قصدية» . فهى تظهر ما يسميه الفلاسفة بأنه «القصديّة» .

و«القصديّة» بهذا المعنى الفلسفى الخاص ، مفهوم خلافى جداً ، وكثيراً ما يحدث روتينياً أن يساء فهمه ويساء استخدامه من غير الفلاسفة ، بحيث أجد أنه يجب على أن أتوقف لأهاجم هذا التعريف لها . لسوء الحظ ، فإن مصطلح «القصديّة» الفلسفى له ، مع ما يحدث من اتصال بين العلوم المتداخلة ، صديقان مزيفان - كلمتان طيبتان تماماً يسهل الخلط بينهما وبين هذا المصطلح ، وهما حقاً على علاقة به تعد وثيقة نوعاً . والكلمة الأولى مصطلح عادى ، والثانية كلمة تقنية (سوف أؤجل تقديمها زمناً قصيراً) . إننا كثيراً ما نقاش فى حديثنا العادى إن كان ما فعله أحدهم قد حدث عن قصد أم لا . فعندما يصطدم سائق بدعامة جسر ، هل كان ينتحر عن قصد ، أم أنه تغلب عليه النوم ؟ وعندما ناديت فى التو رجل الشرطة

قائلاً له «أبي» هل كان ذلك عن قصد أو هو زلة لسان ؟ ونحن هنا نسأل عن القصدانية بالنسبة للفاعلين ، أليس كذلك ؟ نعم ، بالمعنى العادى ؛ ولا ، بالمعنى الفلسفى .

القصدانية بالمعنى الفلسفى هى فحسب «ما حولية» aboutness . والشئ يظهر قصدانية إذا كانت كفاءته بطريقة ما متعلقة «حول» شأن آخر . ويمكننا كبديل لذلك أن نقول أن الشئ الذى يظهر قصدانية يحوى «تمثلاً» representation لشئ آخر - ولكنى أرى أن هذا قول أقل كشافاً وأكثر إشكالية . هل القفل يحوى تمثلاً للمفتاح الذى يفتحه ؟ والقفل والمفتاح يظهران أكثر الأشكال البدائية من القصدانية ؛ وكذلك أيضاً مستقبلات المواد شبه الأفيونية فى خلايا المخ - المستقبلات التى صممت لتقبل الجزيئات الأندروينية(*) التى ظلت الطبيعة تداوم على توفيرها داخل المخ طيلة ملايين السنين . وكلاهما ، المستقبلات والأقفال ، يمكن خداعه ، أى فتحه بواسطة أحد المحتالين . وجزيئات المرففين مفاتيح هيكلية اصطناعية شكلت حديثاً لتفتح هى أيضاً أبواب المستقبلات شبه الأفيونية (الحقيقة أن اكتشاف هذه المستقبلات فائقة التخصص هو الذى ألهم بإجراء الأبحاث التى أدت إلى اكتشاف الأندروينات ، وهى مواد القضاء على الألم الخاصة بالمخ نفسه . على أنه كما استدل الباحثون ، لابد وأنه يوجد بالفعل فى المخ شئ ما بحيث أن هذه المستقبلات المتخصصة تكون متعلقة «حول» فى المقام الأول) . وعلاقة القفل - المفتاح التى بهذا النوع من «الماحولية» البدائية هى العنصر الأساسى للتصميم الذى شكلت منه الطبيعة الأنواع الأرقى من المنظومات الفرعية التى ربما تستحق بأكثر أن تسمى بالمنظومات التمثيلية ، وبالتالى سيكون علينا فى كل حال أن نحلل «الماحولية» المتعلقة بهذه التمثيلات بلغة من (الشبه ؟) بماحولية الأقفال والمفاتيح . ونحن نستطيع أن نوسع من هذه النقطة لنقول أن الشكل الحالى للولب المصنوع من معدنين فى جهاز الثرموستات هو تمثيل لدرجة حرارة الحجرة الحالية ، وأن وضع رافعة الثرموستات التى يمكن تغيير ضبطها هو تمثيل لدرجة الحرارة المرغوبة للغرفة ، ولكننا نستطيع أيضاً بما يساوى ذلك تماماً أن ننكر أن هذه الأمور هى تمثيلات بالمعنى الصحيح للكلام ، إلا أنها أمور تتضمن بالفعل معلومات «حول» درجة حرارة الغرفة ، وهى بفضل ما تتضمنه هكذا تساهم فى كفاءة منظومة قصدية بسيطة .

لماذا يسمى الفلاسفة الماحولية بأنها «قصدانية» ؟ إن هذا كله يرجع وراء إلى فلاسفة العصور الوسطى الذين صاغوا المصطلح ، عندما لاحظوا التشابه بين مش هذه

(*) المواد الأندروينية مواد طبيعية يفرزها المخ لتسكين الألم ومفعولها يشبه مادة المورفين الصناعية . (المترجم) .

الظواهر وبين فعل تسديد أحد الأسهم لشيء ما . ويمكننا أن نقول أن الظواهر القصدية مجهزة بأسهم مجازية تسدد إلى شيء أو آخر - إلى أى مما تدور الظواهر حوله أو تشير إليه أو تلمح عنه . ولكن الكثير من الظواهر التي تظهر هذا النوع من الحد الأدنى للقصدانية هي طبعاً ظواهر لا تفعل شيئاً «عن قصد» ، بمعنى المصطلح في الحياة اليومية . إن الحالات الإدراكية ، والحالات الإنفعالية ، وأحوال الذاكرة كلها مثلاً تظهر ماحولية بدون أن تكون بالضرورة قصدية بالمعنى المعتاد للكلمة ؛ فهي قد تكون بصورة كلية استجابات لا إرادية أو أوتوماتيكية لأحد الأشياء أو الآخر . فليس هناك أى شيء قصدي فيما يتعلق بإدراكنا لجواد ما عندما يلوح للنظر ، ولكن حالتنا الإدراكية هنا تظهر ماحولية من نوع خاص جداً : فنحن ندركه على أنه جواد . ولوم أنك أسأت إدراكه «على أنه» وعل أو رجل يركب دراجة بخارية ، فإن حالتك الإدراكية يكون فيها ماحولية من نوع مختلف . فهي قد سددت سهمها على نحو مختلف تماماً - سددته إلى شيء غير موجود في الحقيقة ، ولكنه مع ذلك محدد تماماً : إما الوعل الذي لا وجود قط ، أو راكب الدراجة البخارية الوهمي . وهناك اختلاف سيكولوجي كبير بين أن نظن خطأ أننا في حضرة وعل وأن نظن خطأ أننا في حضرة رجل يركب دراجة بخارية ، وهو اختلاف له نتائج يمكن التنبؤ بها . وقد لاحظ منظرو العصور الوسطى أن سهم القصدانية يمكن هكذا أن يسدد إلى لا شيء وإن كان مع ذلك يتم تسديده بطريقة معينة إلى حد ما . وقد سموا موضوع التفكير سواء كان حقيقياً أم لم يكن بأنه «الموضوع القصدى» .

حتى نفكر حول شيء ما ، يجب أن تكون لدينا طريقة للتفكير حوله - طريقة واحدة من بين طرائق كثيرة ممكنة . وأى منظومة قصدية هي في حالة اعتماد على طرائقها المعينة في التفكير حول شيء - الإدراك ، والتقصي عن ، والتعرف على ، والخوف من ، والتذكر - لأى مما تدور «أفكار» المنظومة حوله . وهذا الاعتماد هو ما يخلق كل الفرص للبلبل ، عملياً ونظرياً معاً . ومن الوجهة العملية فإن أحسن سبيل لبلبل منظومة قصدية معينة هي استغلال خطأ ما في طريقتها (أو طرائقها) في الإدراك أو التفكير حول أى مما تحتاج للتفكير حوله . والطبيعة قد استكشفت تنوعات لا حصر لها بالنسبة لهذا المبحث ، حيث أن إحداث بلبل في المنظومات القصدية الأخرى هو هدف رئيسي في حياة معظم المنظومات القصدية . وعلى كل ، فإن إحدى الرغبات الرئيسية في أى منظومة قصدية حية هي الرغبة في الطعام اللازم ليوفر الوقود لعملية النمو والترميم الذاتي والتكاثر ، وبالتالي فإن كل كائن حي يلزم له أن يميز الطعام (المادة الطيبة) عن سائر العالم . ويتبع ذلك أن توجد رغبة أساسية أخرى هي تجنب أن تصبح المنظومة طعاماً لمنظومة قصدية أخرى . وهكذا فإن هناك

خدعاً استراتيجياً كالتمويه والتقليد والتسلل وغير ذلك من خدع لا حصر لها تضع صانعي أفعال الطبيعة موضع الاختبار ، وتستثير تطوير طرائق ذات فعالية تتزايد أبداً من أجل تمييز أحد الأشياء عن الآخر ومتابعة مسار ذلك . ولكن ليست هناك طريقة تكون محكمة إحكاماً كاملاً . ولا يوجد فعل «أخذ» دون احتمال «للخطأ» . وهذا هو السبب في أنه من المهم جداً بالنسبة لنا كمنظرين أن نكون قادرين على التعرف على وتمييز مختلف أنواع الأخذ (والخطأ) التي يمكن أن تحدث في المنظومات القصدية . وحتى نفهم الطريقة الفعلية التي تقوم بها إحدى المنظومات «بالأخذ» في ظروفها ، يجب أن يكون لدينا صورة مضبوطة لاعتمادها على قدراتها المعينة لتمييز بين الأشياء - طريقتهما في «التفكير حول» الأشياء .

على أننا لسوء الحظ ، نميل كمنظرين إلى المبالغة في فعل ذلك ، إذ نعبر أن قدرتنا «نحن» الخاصة ، تلك القدرة غير المحدودة وشبه الكاملة على تمييز أحد الأشياء عن الآخر في أفكارنا (وذلك بفضل قدرتنا على استخدام اللغة) ، نعبر أن قدرتنا هذه وكأنها العلامة المميزة لكل القصدانية الحقيقية ، وكل الماحولية الجديرة باسمها . وكمثل ، فعندما ينقذف لسان الضفدعة خارجاً منها ليمسك بأى شيء يطير فيما حولها ، فإن الضفدعة قد ترتكب خطأ - فقد تبتلع إحدى كريات التحميل (بلية) التي ألقاها طفل عابث ، أو تبتلع طعم صياد سمك مربوط بخيط من شعيرة واحدة ، أو أى شيء شاذ لا يؤكل . والضفدعة هنا قد ارتكبت خطأ ، ولكن أى خطأ (أو أخطاء) قد ارتكبته الضفدعة «بالضبط» ؟ ما الذى كانت الضفدعة «تعتقد» أنها ستمسك به ؟ أهو ذبابة ؟ طعام يحمله الهواء ؟ شيء متحرك محذب قائم ؟ نحن الذين نستخدم اللغات يمكننا أن نستنتج ما لا نهاية له من تميزات رهيفة للمحتوى المطروح لفكر الضفدعة ، بينما هناك فرض لم يختبر ، وهو أننا قبل أن نستطيع إضفاء أى قصدانية «حقيقية» على الضفدعة ، عينا أن نضيق من محتوى أحوال وأفعال الضفدعة بنفس الدقة التي نستطيع استخدامها (من حيث المبدأ) عندما ننظر أمر الأفكار البشرية ومحتواها المفترض .

ظل هذا الأمر مصدراً رئيسياً للبلبل النظرية ، وحتى تزداد الأمور سوءاً فإن هناك مصطلح تقنى من المنطق فى متناول اليد يشير بالضبط إلى هذه القدرة للغة على أن تؤدي ما لا نهاية له من تميزات دقيقة : إنه مصطلح «التكثيفانية» . والتكثيفانية ملمح من ملامح اللغات ، وليس لها تطبيق مباشر لأى نوع آخر من منظومات التمثل (الصور، الخرائط، الأشكال، «صور البحث»، ... «العقول») . وحسب الاستخدام المقتن بين المناطق ، فإن الكلمات أو الرموز فى إحدى اللغات يمكن تقسيمها إلى الكلمات المنطقية أو الوظيفية («إذا» ، «و» ، «أو» ، «ليس» ، «كل» ،

«بعض»...» و «الحدود» أو «المحمولات» ، وهذه يمكنها أن تتنوع بمثل تنوع موضوع النقاش («أحمر» ، «طويل» ، «الجد» ، «أوكسجين» ، مؤلف سونيتات^(*)) من الدرجة الثانية» ، وكل حد أو محمول له معنى فى اللغة يكون له «امتداد» - أى الشئ أو مجموعة الأشياء التى يشير إليها الحد - كما أن له «تكثيف» - أى الطريقة المعينة التى يتم بها تمييز أو تحديد هذا الشئ أو مجموعة الأشياء . إن «والد شيلزى كلينتون» ، و«رئيس الولايات المتحدة فى ١٩٩٥» عبارتان تطلقان على نفس الشئ ذاته - بيل كلينتون - وبالتالي فإن لهما نفس الامتداد ، ولكنهما توجهان إلى هذا الكيان المشترك بطريقتين مختلفتين ، وبالتالي فإن لهما تكثيفات مختلفة . ومصطلح «المثلث متساوى الأضلاع» يميز بالضبط نفس منظومة الأشياء مثل مصطلح «المثلث متساوى الزوايا» ، وبالتالي فإن هذين المصطلحين لهما نفس الامتداد ، ولكن من الواضح أنهما لا يعنيان نفس الشئ : فأحدهما يدور «حول» تساوى أضلاع المثلث والآخر يدور «حول» تساوى الزوايا . وبالتالي فإن التكثيف يتباين مع الامتداد ، ويعنى تماماً «المعنى» . ولكن أليس هذا هو ما تعنيه أيضاً «القصدانية» ؟

يلاحظ المناطق أننا لأسباب كثيرة يمكننا أن نتجاهل الاختلاف بين «تكثيفات» الحدود وأن نكتفى بمتابعة «الامتدادات» . وعلى كل فإن الورد ، أيا ما كان لها من أسماء أخرى ، سوف تظل حلوة الرائحة ، وبالتالي ، إذا كانت الورد هى موضوعنا ، فإن الطرائق الكثيرة كثرة لا نهاية لها للوصول بصنف الورد إلى النقاش ينبغى أن نكون متكافئة من وجهة نظر المنطق . وحيث أن الماء هو يدب أ ، فإن أى شئ يقال بحق عن الماء باستخدام حد «الماء» سيقال بنفس القدر من الحق إذا أحللنا حد يدب أ مكان «الماء» - حتى وإن كان هذان الحدان يختلفان اختلافاً رهيفاً فى المعنى أو التكثيف . وهذا النوع من الحرية يصبح بالذات واضحاً ومفيداً فى بعض مجالات البحث مثل الرياضيات ، حيث يمكننا دائماً أن نستفيد من ممارسة استبدال الحدود المتساوية ، فنستبدل ١٦ بـ ٢٤ أو العكس ، ذلك أن هذين الحدين المختلفين يشيران إلى نفس العدد الواحد . وحرية الاستبدال فى السياقات اللغوية تسمى تسمية ملائمة لها هى «شفافية المرجعية» : فيمكننا أن نرى بالفعل مباشرة من خلال الحدود ، الأشياء التى تشير لها هذه الحدود . ولكن إذا كان الموضوع ليس عن الورد وإنما هو عن «التفكير حول الورد» أو «الحديث حول (التفكير حول) الورد» ، فإن اختلاف التكثيف هنا يمكن أن يكون مهماً . وبالتالي ، فحيثما كان الموضوع عن المنظومات القصدية ومعتقداتها ورغباتها ، فإن

(*) السونيتة قصيدة إنجليزية من أربعة عشر بيتاً . (المترجم) .

اللغة التي يستخدمها المنظر تكون حساسة للتكثيف. وسوف يقول أحد المناطقة أن حديثاً كهذا يظهر «عتامة مرجعية» ، إنه ليس شفافاً ؛ فالحدود نفسها تعترض الطريق وتتداخل مع الموضوع بطرائق رهيقة تثير البلبلة .

حتى نعرف مدى الأهمية الفعلية لعتامة المرجعية عندما نتخذ الموقف القصدي ، دعنا ننظر أمر قضية جذرية للموقف القصدي وهو يعمل فعله ، مطبقاً على فرد من البشر . ونحن نفعل ذلك كل يوم دون جهد ، ونادراً ما نعبر بوضوح عما يتضمنه الأمر ، ولكن هاك مثل مأخوذ من مقال فلسفي حديث - مثل يجري على نحو غريب نوعاً ولكنه مفيد بما فيه من تفصيل فوق المعتاد : أراد بروتوس أن يقتل قيصر . وكان بروتوس يعتقد أن قيصر رجل فان عادي ، ومن هنا فإن طعنه (الذي نعني به غرز سكين في قلبه) هو أحد السبل لقتله . وكان بروتوس يعتقد أنه يستطيع أن يطعن قيصر ، ذلك أنه يذكر أن لديه سكين وهو قد رأى أن قيصر يقف بجواره في الساحة إلى اليسار منه . وبالتالي فإن بروتوس يتحرك فيه الدافع لطعن الرجل الذي يقف إلى يساره . وهو قد فعل ذلك ، وبالتالي فقد قتل قيصر .

نلاحظ أن الحد «قيصر» يلعب خفية دوراً مزدوجاً خطيراً في هذا الشرح - وليس فحسب بالطريقة المعتادة الشفافة لتمييز أحد الرجال ، قيصر الرجل الذي يرتدى رداءه الروماني واقفاً في الساحة ، وإنما تميز الرجل «بالطريقة التي يميّز بها بروتوس نفسه» . وبروتوس لا يكفيه أن يرى قيصر واقفاً بجواره ؛ وإنما عليه أن يرى أنه «هو» قيصر ، الرجل الذي يريد قتله . ولو أن بروتوس أخطأ رؤية قيصر لرجل الذي إلى يساره على أنه كاسيوس ، فإنه إذن لن يحاول أن يقتله : فما كان ليحرك فيه الدافع ، كما يقول المؤلفون ، لطعن الرجل الواقف إلى يساره ، حيث نه لن يستدعي الصلة المهمة التي في عقله - الرابطة التي تطابق الرجل الذي إلى يساره مع هدفه .

هدف إحكام القضية المضلل :

حيثما قام عامل فعال بالفعل ، فإن فعله يكون على أساس فهم معين للظروف - أو سوء فهم معين لها ، والتفسيرات والتنبؤات القصصية تعتمد على الاستحواذ على هذا الفهم . وحتى نتنبأ بفعل لمنظومة قصصية ، علينا أن نعرف الأشياء التي تدور حولها معتقدات ورغبات العامل الفعال ، «ولذلك» علينا أن نعرف بصورة تقريبية على الأقل ، «كيف» تكون هذه المعتقدات والرغبات حول تلك الأشياء ، وذلك حتى يمكننا القول بما إذا كانت العلاقات المهمة قد تم استنتاجها أو سوف تستنتج .

ولكن دعنا نلاحظ أنني قلت أننا حينما نتخذ الموقف القصدي فإن عينا أن نعرف «بصورة تقريبية على الأقل» ، كيف يميز العامل الفعال الأشياء التي تهمة . والإخفاق في ملاحظة ذلك يكون مصدراً رئيسياً للبلبل . ونحن على نحو نمطي لا

نحتاج لأن نعرف «بالضبط» الطريقة التى يفهم بها العامل الفعال مهمته . فالموقف القصدى يستطيع عادة أن يتحمل قدرًا كبيرًا من عدم الإحكام ، وهذه نعمة ، حيث أن مهمة التعبير «بالضبط» عن طريقة فهم العامل الفعال لمهمته ، هى أمر يساء فهمه ، إنها نوع من تدريب بلا هدف مثله فى ذلك مثل قراءة قصائد فى كتاب باستخدام المجهر . وإذا كان العامل الفعال موضع الدراسة لا يفهم ظروفه بمساعدة من لغة قادرة على القيام بتمييزات معينة ، فإن ما للغتنا من القدرة الفائقة على التحليل لا يمكن تسخيرها مباشرة فى مهمة «التعبير» عن الأفكار المعينة لهذا العامل الفعال أو طرائق تفكيره أو أنواع حساسيته . (على أن اللغة يمكن استخدامها بطريقة غير مباشرة «لتوصيف» تلك الخصائص بأى تفصيل يتطلبه السياق النظرى) .

كثيراً ما تضيع هذه النقطة وسط الضباب الذى تثيره حاجة فيها إقناع زائف وتجترى على النحو التالى . هل الكلاب (مثلاً) تفكر ؟ إذا كانت تفكر ، فإنها بالطبع يجب أن تفكر أفكاراً معينة . والفكرة لا يمكن أن توجد بدون أن تكون فكرة ما معينة أو الأخرى ، أليس كذلك ؟ ولكن الفكرة المعينة يجب أن تتألف من مفاهيم معينة ، فأنت لا تستطيع أن تفكر بفكرة أن :

«طبقى مملوء باللحم البقرى» .

إلا إذا كان لديك مفاهيم عن «الطبق» وعن «اللحم البقرى» ، وحتى تمتلك هذه المفاهيم فإن عليك أن تمتلك حشداً من مفاهيم أخرى (دلو، صحن، بقرة، لحم، ...) ، حيث أن هذه الفكرة المعينة يمكن بسهولة تمييزها (بواسطتنا) عن فكرة أخرى هى :

«الدلو مملوء باللحم البقرى»

كما يسهل تمييزها عن فكرة أن

«صحنى مملوء بكبد العجول»

دع عنك أن نقول أنها سهلة التمييز عن فكرة أن

«المادة الحمراء اللذيذة المذاق الموجودة فى هذا الشيء

الذى آكل منه عادة ليست هى المادة المعتادة الجافة

التي يطعموننى بها» .

وهكذا دواليك ، وهلم جرا إلى الأبد . ما هى بالضبط الفكرة أو الأفكار التى يفكر بها الكلب ؟

كيف يمكننا أن نعبر بالضبط - بالإنجليزية مثلاً - عن الفكرة التى يفكر بها

الكلب ؟ وإذا كان هذا مما لا يمكن لنا فعله (وهو لا يمكن حقاً) ، إذن إما أن الكلاب لا تستطيع مطلقاً التفكير بأفكار أو أن أفكار الكلاب لا بد وأنها مما لا يمكن التعبير عنها منهجياً - وبالتالي فإنها أبعد من إدراكنا .

وأى من البديلين ليس صحيحاً بالضرورة . والرأى بأن «فكرة» الكلب قد لا يمكن التعبير عنها (باللغة البشرية) لجرد أن التعبير باللغة البشرية «يقطع فواصل جد دقيقة» ، هذا الرأى كثيراً ما يحدث تجاهله ، هو والرأى الناتج عنه طبعياً : الرأى بأننا على الرغم من ذلك يمكننا أن نصف وصفا شاملاً ما لا يمكننا التعبير عنه ، بحيث لا نترك مطلقاً أى بقية من غموض . إن الكلب لا بد وأن تكون لديه طرائق معينة لتمييز الأشياء ، وهذه الطرائق تنتظم فى «مفاهيم» معينة وخاصة تماماً . وإذا أمكننا استنتاج كيف تعمل هذه الطرائق ، وأن نوصف كيف تعمل معا ، فإننا سوف نعرف عندها الكثير حول محتوى أفكار الكلب مثلما نعرف محتوى أفكار إنسان آخر من خلال الحوار ، حتى وإن كنا لا نستطيع أن نجد جملة (بالإنجليزية أو أى لغة بشرية أخرى) «تعبّر» عن هذا المحتوى .

ونحن البشر أصحاب العقول عندما نقوم من خلال منظورنا الراقى رقيقاً فريداً باستخدام حيلتنا «نحن» الخاصة حيث نطبق الموقف القصدى على الكيانات الأخرى، عندما نفعل ذلك فإننا نفرض طرائقنا عليهم ، ونخاطر بأن نضفى على هذه المنظومات التى نحاول فهمها مرتبة من الوضوح والتمييز والاتساق بأكثر مما ينبغى . ونحن أيضاً نخاطر بأن نضفى على النموذج الذى نصنعه لهذه المنظومات البسيطة «صنفاً» بعينه من التنظيم الخاص بعقولنا نحن أنفسنا ونضفيه عليها بأكثر مما ينبغى . واحتياجاتنا ليست كلها احتياجات مشتركة مع هذه الكيانات البسيطة التى رشت كأصحاب عقول ، وبالتالي فإن رغباتنا ليست كلها رغبات مشتركة معها . وبالتالي كذلك فإن ممارساتنا العقلية وبالتالي مواردنا العقلية ليست كلها مشتركة معها .

والكثير من الكائنات الحية «تخبر» الشمس ، بل وتهتدى فى حياتها بمرورها. وزهرة عباد الشمس قد تتابع الشمس فى أدنى حد بأن تلتوى لتواجهها وهى تعبّر السماء ، فتعظم من تعرضها يومياً لضوء الشمس ، ولكنها لا تستطيع التغلب على مظلة تتدخل بينهما . وهى لا تستطيع أن تتوقع عودة الشمس للطلوع فى وقت تال محسوب لتكيف من «سلوكها» البطئ البسيط حسب هذا التوقع . وربما يكون أحد الحيوانات قادراً تماماً على مثل هذا التصرف المعقد ، معدداً من تحركاته ليبقى نفسه مختبئاً فى الظل عن فريسته ، أو أنه حتى يتوقع المكان الذى يتمدد فيه فى الشمس لينام طويلاً ، مدركا (بصورة مبهمة وبغير تفكير) أن ظل الشجرة سوف يستطيل سريعاً. والحيوانات تتابع الأشياء الأخرى وتعيد التعرف عليها (الأليف، الفريسة،

الذرية، أماكن الطعام المفضل) ، والحيوانات قد تتابع الشمس على نحو مماثل . أما نحن أفراد البشر فإننا لا نكتفى فقط بمتابعة الشمس ، وإنما نقوم أيضاً باكتشاف انطولوجى حول الشمس : أنها «الشمس !» نفس الشمس ذاتها فى كل يوم .

وقد طرح عالم المنطق الألمانى جوتلوب فريجه مثلاً كتب عنه المناطقة والفلاسفة لأكثر من قرن من الزمان : وهو أن نجمة الصباح التى كان القدماء يعرفونها باسم الفوسفور ، ونجمة المساء التى كانوا يعرفونها باسم هسبيروس هما نفس الجرم السماوى الواحد : الزهرة . وهذه الحقيقة معروفة اليوم ، ولكن الكشف عن هذا التطابق كان تقدماً جوهرياً مبكراً فى علم الفلك . من من بيننا يستطيع اليوم أن يصيغ حاجة ويحشد الأدلة الحاسمة عن ذلك دون أن يشد المعونة من أحد الكتبة؟ على أننا حتى ونحن أطفال صغار نفهم هذا الفرض بسهولة (ونتقبله طائعين) . ومن الصعب أن نتصور أن أى كائنات أخرى يمكن قط أن تتوصل إلى صياغة الفرض بأن هاتين النقطتين اللامعتين هما نفس الجرم السماوى الواحد ، دع عنك أن تثبته .

ألا يمكن أن هذه الأقراص الضخمة الساخنة التى تتخذ لنفسها مساراً يومياً عبر السماء ، هى أقراص جديدة فى كل يوم ؟ بل إننا أفراد النوع الوحيد الذى يمكنه أن يصيغ هذا السؤال . ولتقارن الشمس والقمر بالفصول . إن الربيع يعود ثانية فى كل عام ، ولكننا لم نعد (بعد) نسأل عما إذا كان ما يعود هو «نفس» الربيع . ولعل الربيع وقد جسد كإلهة فى الزمن القديم ، «كان» أسلافنا يرونه على أنه كيان مفرد له أن يعود ، وليس بالكلية الذى يتكرر وقوعه ، أما بالنسبة للأنواع الأخرى فإن هذا ليس بقضية على الإطلاق . وبعض الأنواع لها حساسية شديدة للتغيرات ؛ فهى تستطيع فى بعض المجالات أن تميز تفاصيل أكثر كثيراً مما نستطيع تمييزه بحواسنا المجردة (وإن كنا فى حدود ما نعرف ، نستطيع بمساعدة من توسعنا بالأعضاء الصناعية - كالميكروسكوب «المجهر» ومقياس الطيف ، والكروماتوجرافيا^(*) الغازية وما إلى ذلك - نستطيع بهذه المساعدة أن نصل إلى تمييز تفاصيل أدق فى كل شكلية مفردة على نحو أرهف من أى كائنات أخرى على كوكبنا) . ولكن هذه الأنواع الأخرى ليس لديها إلا قدرة محدودة جداً على التأمل ، وحساسيتها يتوجه مسارها فى مجموعات من الاحتمالات الضيقة نوعاً ، كما سوف نرى .

ونحن فى تباين مع ذلك «نعتقد بكل شيء» . فلا يوجد فى الظاهر أى حد

(*) الكروماتوجرافيا طريقة كيميائية لفصل وتمييز مكونات الخليط الكيميائى مهما كانت مقاديرها صغيرة ، وذلك حسب اختلاف سرعة ذوبان الخليط فى محلول واحد قد يكون سائلاً أو غازياً (المترجم) .

لما يمكن أن نعتقد به ولما يمكن أن نميزه في اعتقادنا . فنحن نستطيع أن نميز بين الاعتقاد بأن الشمس تكون وظلت دائما وهى تكون النجم نفسه فى كل يوم» وبين الاعتقاد بأن

«الشمس قد ظلت نفس النجم فى كل يوم منذ ١ يناير ١٩٠٠ ، عندما تلقت آخر شمس مهمتها من الشمس السابقة لها» .

وأظن أنه ما من أحد يعتقد بهذه الفقرة الأخيرة ، ولكن من السهل أن نرى ما يكونه هذا الاعتقاد ، وأن نميزه معا عن المعتقد المقتن وأيضاً عن المعتقد التالى الذى وإن كان يماثله سخافة إلا أنه معتقد مختلف ، وهو الإعتقاد بأن

«أحدث تغير فى الشمس قد حدث فى ١٥ يناير ١٩٨٦»

والصيغة الأساسية لكل هذه الحالات العقلية التى تُضفى على المنظومات القصدية هى جمل تعبر عما يسمى «مواقف القضايا»

س يعتقد فى أن ع .

ص يرغب فى أن ف .

ش يتساءل عما إذا كان ل .

تتألف هذه الجمل من ثلاثة أجزاء : حد يشير إلى المنظومة القصدية التى يُدرس أمرها (س، ص، ش) وحد للموقف الذى يضى عليها (يعتقد ، يرغب ، يتساءل ...) ، وحد للمحتوى المعين أو المعنى المعين لهذا الموقف - أى «القضية» التى يشار إليها فى هذه الحالات النمذجة بحروف ع، وف، ول . والجمل الواقعية لإضفاء المحمول(*) يتم فيها بالطبع «التعبير» عن هذه القضايا «كجمل» (بالإنجليزية أو بأى لغة يستخدمها المتكلم) ، وهذه الجمل تحوى حدوداً قد لا يمكن أن يحل محلها بلا قيد الحدود التى تتشارك معها فى امتدادها - بمعنى ظاهرة عتامة المرجعية.

القضايا إذن ، هى الكيانات النظرية التى نتعرف بها على المعتقدات أو نقيسها بها. وحتى يتشارك معتقدان أثنان فى الاعتقاد بنفس المعتقد ، فإن هذا يعنى حسب التعريف أنهما يعتقدان بنفس القضية الواحدة . وإذن فماذا تكون القضايا ؟ إنها حسب التقليد الفلسفى المتفق عليه اتفاقاً متبادلاً ، المعانى المجردة التى تتشارك فيها كل «الجمل» التى ... تعنى نفس الشيء . ها هى دائرة منذرة تنبثق من دخان المعركة . هناك فيما يفترض قضية واحدة يتم التعبير عنها هى نفسها بواسطة تالى:

١ - Snow is white الثلج أبيض (بالإنجليزية) .

(*) المحمول فى المنطق ما يقال أو ما يضى على موضوع . (المترجم) .

٢ - La neige est blanche (بالفرنسية) .

٣ - Der schnee ist weiss (بالألمانية) .

وعلى كل حال ، نحن عندما نضفي إلى توم الاعتقاد بأن الثلج أبيض ، فإننا نريد لبير وويلهلم أن يكونا قادرين على إضفاء نفس الاعتقاد على توم باللغة التي يتعلمان بها . وحقيقة أنه قد لا يلزم على توم أن يفهم إضفاءاتهما أمر خارج عن الموضوع . وفيما يتعلق بذلك ، فإن توم لا يلزم أن يفهم ما أضفيه (أنا) ، وذلك بالطبع لأن توم ربما يكون قطعة أو تركيا لا يتكلم إلا لغته .

ولكن هل هناك قضية واحدة يتشارك أيضاً فيها نفسها ما يلي :

٤ - بيل ضرب سام .

٥ - سام ضرب بواسطة بيل .

٦ - بيل كان العامل الفعال لفعل الضرب الذي كان سام ضحيته .

إنها كلها تقول «نفس الشيء» ، إلا أنها كلها تقول هذا «الشيء» بطرائق مختلفة . هل ينبغي أن ترتب القضايا حسب «طرائق قولها» أو حسب «الأشياء التي تقولها» ؟ إن إحدى الطرائق البسيطة والجذابة من وجهة النظرية لحسم هذه المسألة هي أن تسأل عما إذا كان من يعتقد ، يستطيع الاعتقاد بإحدى هذه القضايا بدون الاعتقاد بالأخرى . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنها تكون قضايا مختلفة . وعلى كل ، إذا كان للقضايا أن تكون الكيانات النظرية التي تقيس الاعتقاد ، فإننا لن نريد لهذا الاختبار أن يفشل . ولكن كيف نستطيع أن نختبر ذلك إذا كان توم لا يتكلم الإنجليزية أو لم يكن متكلماً على الإطلاق ؟ ونحن الذين نعطي الإضفاء يجب علينا - على الأقل عندما نعبر عن إضفاءاتنا لغوياً - أن نتقيد بمنظومة للتعبير ، أى بإحدى اللغات ، واللغات تختلف في بنيتها كما تختلف أيضاً في مصطلحاتها . ونحن إذ نكون مقسورين هكذا داخل بنية لغة واحدة أو الأخرى ، فإننا طوعاً أو كرها نضطلع بتمييزات أكثر مما قد تسوغه الظروف . وهذه هي النقطة المهمة في التحذير الذي أطلقته فيما سبق عن الإضفاء «التقريبى» للمحتوى بما يكفى لنجاح الموقف القصدى .

يشبه الفيلسوف بول تشيرشلاند القضايا بالأرقام - فهي أشياء تساويها في تجردها وتستخدم لقياس الكثير من الخواص الفيزيائية .

س وزن بالجرامات ١٤٤

ص سرعته بالأمطار في الثانية ١٢

من الواضح أن الأرقام تحسن السلوك وهى تقوم بهذا الدور . ونحن نستطيع أن نستبدل «المتساويات بالمتساويات» . وليس من صعوبة فى أن نتفق على أن س وزنه بالجرامات هو 2×72 أو أن ص سرعته بالأمتار فى الثانية هى $9 + 3$. وإنما كما رأينا ، فإن هناك صعوبة فى أن نحاول تطبيق نفس قواعد التحويل والتكافؤ على تعبيرات مختلفة لما يزعم أنه نفس القضية . فالقضايا بكل أسف كيانات نظرية لا تحسن السلوك مثل الأرقام . فالقضايا تشبه الدولارات أكثر من الأرقام !

هذه الماعزة قيمتها خمسون دولارا .

ما هى قيمتها بالدراخمت اليونانية ، أو الروبلات الروسية [فى أى يوم من الأسبوع] ! - وهل قيمتها اليوم أكثر أو أقل مما كانت فى أثينا القديمة أو كجزء من الإمدادات فى حملة ماركو بولو الاستكشافية ؟ لا ريب أن الماعزة لها دائماً قيمتها عند مالكها ، ولا ريب فى أننا نستطيع أن نحدد قياساً إجرائياً تقريبياً لقيمتها بأن ننفذ - أو نتخيل أننا ننفذ - مقايضة بالنقد أو بمسحوق الذهب أو الخبز أو أيا ما يكون . ولكن لا توجد منظومة محددة محايدة أبدية لقياس القيمة الاقتصادية ، وبالمثل لا توجد منظومة محددة محايدة أبدية لقياس المعنى بالقضايا . فماذا إذن ؟ أظن أنه سيكون أمراً طيباً أن توجد مثل هذه المنظومات ؛ فهى ستساعد على أن يكون العالم أكثر دقة ، وهى قد تجعل مهمة المنظر أبسط . إلا أن وجود منظومة شاملة للقياس ذات معيار واحد أمر لا ضرورة له للنظرية ، سواء بالنسبة للنظرية الاقتصادية أو نظرية المنظومة القصدية . والنظرية الاقتصادية الصحيحة لن يهددها أن يوجد قدر من عدم الدقة لا يمكن حذفه ، عندما تقيس هذه النظرية القيمة الاقتصادية قياساً يُعمَّم لكل الظروف فى كل الأوقات . ونظرية المنظومة القصدية الصحيحة لن يهددها أن يوجد قدر من عدم الدقة لا يمكن حذفه ، عند قياسها للمعنى عبر نفس الطيف الشامل . وما دمنا منتبهين لهذه الصعوبة ، فإننا نستطيع التعامل مع كل المشاكل الموضوعية تعاملًا جاد مرضى ، مستخدمين أى منظومة تقريبية جاهزة نختارها .

سوف نجد فى الفصول التالية أننا عندما نأخذ مقدرتنا على «الاعتقاد بكل شئ» لنطبقها على كائنات «أقل درجة» ، فإن هذا سوف ينظم لنا المعطيات بسهولة : فهى ستخبرنا أين تكون نظرتنا التالية ، وتضع الشروط الحديثة ، وتلقى ضوءاً كاشفاً على أنماط التشابه والاختلاف . على أنه كما رأينا من قبل ، لو أننا لم نتخذ الحيلة فإنها تستطيع أيضاً أن تشوه رؤيتنا تشويهاً فاجعاً . وعندما نعامل أحد لكائنات الحية ، أو أى من منظوماته المتفرعة الكثيرة ، على أنه منظومة قصدية بدائية تتابع

«بلا تفكير» وعلى نحو بدائي غاياتها التي لا ريب في تعقدها ، عندما نفعل ذلك فإن هذا أمر يختلف تماماً عن أمر آخر ، وهو أن نعزو لهذا الكائن قدرة الإدراك التأملى لما يفعله . إن نوع التفكير التأملى كما هو لدينا ، ابتكار تطورى حديث جداً .

والجزئيات الكبيرة الأصلية الناسخة لذاتها «لديها» أسبابها لما تفعله ، ولكنها ليس لديها أى لحة معرفة لهذه الأسباب . وفي تباين مع ذلك فإننا نحن نعرف أسبابنا - أو نعتقد أننا نعرفها ، وليس هذا فحسب ، وإنما نحن أيضاً نوضحها ونناقشها وننقدتها ، ونشارك فيها . إنها ليست فقط أسباباً لفعلنا ؛ أنها أسباب «لنا» . وفي المسافة التي بين الجزئيات الكبيرة وبيننا هناك قصة طويلة تُروى . فلننظر مثلاً أمر فرخ الوقواق الذى يتم فقسه فى عش أجنبي بواسطة آباء يتبنونه دون أن يدروا(*) . إن أول فعل له عندما يخرج من بيضته هو أن يدحرج البيض الآخر خارج العش . وليست هذه بالمهمة السهلة ، وسوف ننبهر تماماً عندما نرقب كيف يسلك الطائر الوليد سلوكاً ضارياً واسع الحيلة وأحادى التفكير حتى يتغلب على أى عقبات تقع فى طريقه وهو يطرح بعيداً البيض الآخر . لماذا يفعل ذلك ؟ لأن هذا البيض يحوى منافسين له على رعاية كافليه البدلاء . وهو إذ يتخلص من منافسيه ، يعظم من قدر ما سيتلقاه من طعام ومن رعاية تحميه . وبالطبع ، فإن الوقواق حديث الولادة غير واع لذلك ؛ فليس لديه أى معرفة بهذا الأساس المنطقى لسلوكه الذى لا رحمة فيه ، ولكن هذا الأساس المنطقى «موجود» ، وهو بلا شك قد شكل هذا السلوك الفطرى عبر الدهور . و«نحن» نستطيع أن نعرفه ، حتى ولو كان الوقواق لا يستطيع . وأنا أسمى مثل هذا الأساس المنطقى بأنه «تلقائى» ، لأنه غير «متمثل» فى الفرخ أو فى أى شئ آخر ، حتى وإن كان فعالاً - عبر الزمان التطورى - فى تشكيل وإرهاق السلوك موضع البحث (بأن يوفر له مثلاً احتياجاته المعلوماتية) . والمبادئ الاستراتيجية المضمنة هنا ليست مشفرة بوضوح فى التنظيم الأكبر للمعالم المصممة ، وإنما هى فحسب أمر ضمنى . كيف يحدث أن يتم الاستحواذ على هذه الأسباب والتعبير عنها تعبيراً واضحاً فى بعض ما تطور من عقول ؟

(*) يضع طائر الوقواق بيضه فى عش طيور أخرى تقوم باحتضان بيض الوقواق حتى يفقس (المترجم) .